على عهد الاسير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل السادس

انقلاب مفاجىء (تابع)

ولكن لم تكن كلمات الشيخ تضمد جرحاً ، حتى ينكأ ظلم الأمير حسين الف جرح . فيفرض السنن الجائرة ، ويرفع الضرائب ويجبيها مرّات ، ويتهم الناس بجرائم وهمية ، ويضطهدهم في اعمالهم واشغالهم ، مستبدّاً بالاموال مستهيناً بالارواح . وما عسى الشيخ بو غانم ان يصنع تجاه هذا الضغط ، وقد تبدّد اعوانه ، وتفرّق رجال حزبه ، والتاف عمره على الثمانين ؟ . زد على ذلك ان الأمير حسيناً كان يبثّ جواسيسه ليلَ نهار حول قصر الشربين ، يجوسون اطرافه ، ويتأملون منافذه ، وينفضون مسالكه ، حتى اذا اشتبهوا باحد زائريه القوا القبض عليه ، فغدا يئنّ في سجن الأمير . وكثيراً ما منعوا المظلومين من الوصول الى ربّ القصر ، فظلّ هذا وحده اياماً ولياليَ يتطلّع من نافذة كشكه ، فلا يرى في السوق الّا رجالاً حافي الرؤوس ، منكبي الأبصار ، صفر الوجنات ، متثاقلي الخطى ، يرمون بطرف تائه مضطرب برج السراي ، ثم يقرّون البصر بسرعة ورهبة على كشك قصر الشربين ، فيصادفون وجه الشيخ الوقور وقد زاده الشحوب هيبةً وجلالاً ، ويرون لحيته الكثيفة وقد أثّرت فيها الاحزان فكلّلتها بياضاً ساطعاً . والشيخ كبير القلب ، شديد الجلد ،

كثير الصبر لدى الرزايا ؛ ولكنه وافر الحسّ ، رقيق العاطفة ، وقد توالت عليه المصائب ، وتراحمت في فكره الهموم ، فزادته تعباً على تعب السنين ، وتكاثرت عليه الاثقال فلم يقوَ جسمه المكدود على احتمالها . فكاد يزحف على الرغم من قوّة بنيته . حتى انه كان ، بعد ان ينهي الحديث مع زوّاره فيشجعهم ويصبّرهم ويبعث في صدورهم ميت الأمل بكلماته الكبيرة ، يشعر بان قوّة عظيمة خرجت منهُ في عهدٍ لم يعد قادراً على اعطائها ، فتنحلّ ركبتاه ، وتتكاسل اعضاؤه ، وتضطرب افكاره ، فتنثني عينيه سحابةٌ دكناء لا تريه من خلالها الّا المصائب والبلايا . عند ذاك كان يستعين بعصاه ، ويتكئ على احد خدمه ، فيدلف رويداً الى كشكه حيث ينطرح على المقعد دون حراك .

وكثيراً ما كان يُطيل تلك الجلسة ، وطرفه شاخصٌ الى الأفق البعيد ، طوراً يفتش عن مقرّ عكا ، فتضرب افكاره هائمةً في تلك المجاهل تبحث عمّا عسى ان يكون المّ بغانم ، وبالأمير ، وباعوانه ؛ وتارةً يتحوّل الى بعذران والمختارة وما جاورهما ، فيستنبئ الافق عن احوال المير جهجاه ، والشيخ حسن جنبلاط ، وسائر رجال الحزب ؛ وحيناً يعود رويداً رويداً فيستقرّ على سراي دير القمر ، سائلاً كم من الايام السوداء سيدوم استبداد هذا الامير الجائر . . .

* * *

اما خارج دير القمر فلم يكن رجال الأمير بشير ليصبروا على ضيم . ولم يكد يبلغ مسامعهم ما يأتيه الأمير حسين من الفظائع والمنكرات ، حتى اخذوا بالمفاوضات السرّية بعضهم مع بعض . وبدأ التوّاد بالانتقال شيئاً فشيئاً مع افراد رجالهم الى نواحي المختارة ، وبعذران ، وبعقلين . وكان الأمير جهجاه قد حصّن قصره بالمعدّات والذخائر والرجال حتى اصبح ملجأً امينا ، ومعقلاً تتراجع عنهُ الجيوش الجرّارة فكيف برجال الامير حسين . وكثيراً ما كان يردّد على رجاله ، اذ يتفقّد نقاط قلعته: « الامير حسين امير في دير القمر لا في بعذران ! » ثم يقهقه ضاحكاً فيقهقه جميع سامعيه . وكان على اتصال دائم مع الشيخ حسن جنبلاط الذي كان لا يزال في قصر المختارة . وطويلاً ما كانا يجتمعان فيتبادلان الآراء ، ويضعان الخطط التمهيدية للقيام بثورة شاملة في

بلاد الشوف . ولكنهما كانا يتردّدان امام خطرين : الاول ان ينسب الجزار تلك الثورة الى دسائس الامير بشير فينزل به سوءا في عكا . والثاني ان ينسبها الامير حسين الى الشيخ بو غانم فيضيّق عليه في دير القمر . ولم يكن في مقدورهما اذ ذاك خلاص الامير من سجن عكا ، ولا خلاص الشيخ من قصر الشربين .

على ان روح التذمّر العام الذي كان ينتشر يوماً فيوماً في صدور السكان على اختلاف نزعاتهم ، وكثرة الاحتجاجات والتشكي التي كانت ترتفع من كل الأحزاب ، جرأتهما على التقدّم شيئاً في مشروعهما . فاخذا بمفاوضة افراد الحزب فوجداهم على اتم الاستعداد . عند ذاك احبّا جسّ نبض غير رجالات الحزب ، فخابرا مشايخ العمادية بطريقة مبهمة ؛ فاذا بهم ، وقد جمعهم البلاء ، وضمّهم الشقاء ، يلتحقون دون قيد ولا شرط بحزب الامير ، وينتظرون بفروغ صبر ساعة تنفخ على قمم الشوف روح الثورة المخلّصة ، حتى يقوموا « بيوم » امام الامير بشير . . .

عند ذاك اتّفق الجميع . ولم يبقَ الّا دعوة أمير يجملونه على طليعتهم ، ويحاربون تحت لوائه تجاه البلاد ، ويقرّون له موقّتاً بإمارة لبنان حتى يكون لثورتهم صفة وطنية ، وميزة قومية . وإلّا اعتُبرت خروجاً على السلطة ، وعصياناً يستحقّ كل عقاب . فعقدوا اجتماعاً تبادلوا فيه الافكار ، فقرّ رأيهم على اختيار الامير عبّاس اسعد . فاستدعوه ونهضوا به وبرجالهم جميعاً الى بعقلين ليكونوا على مقربة من دير القمر ، فيرموا الذعر في قلب الامير حسين وقلوب اعوانه اذ يرون منهم هذه الجرأة في الاقتراب ، ويولّدوا الرجاء في قلوب المظلومين من أهل الدير اذ يتحقّقون ان الخلاص اصبح قريباً . وكان من رأيهم ان يفاجئوا الدير ليلاً ، فيفتنوا الامير حسيناً في سرايته ، ويبدّدوا حاشيته ، ويحموا قصر الشربين ، فيخلّصوا شيخه قبل ان تتصل اليه عقارب الحاكم الغاشم .

* * *

ولكن سرعان ما تحبط المساعي وتتلاشى الآمال ! فان مدبّر الامير حسين ؛ جرجس باز ، ذاك السياسي الخبير والداهية المحنّك ، كان لا يغفل طرفة عين

عن تنقلات رجال الامير بشير . وكان يلاحظ تجنّبهم ، واقترابهم من العمادية ، وسيرهم بين بعذران والمختارة وبعقلين ، كما يُلاحظ الفلكي الخبير تجمّع الغمام وتراكم السحاب على سطح البحر في ايام الشتاء ، حتى اذا اختلفت مهابّ الهواء ، وتقلّبت درجة الحرارة انذر بقرب العاصفة . وهكذا فعل جرجس باز . فما بلغه خبر اجتماع القوم في بعقلين مع الامير عبّاس اسعد ، حتى كان يملي على كاتب الامير حسين تحريراً مطوّلاً الى الجزّار يخبره فيه ان الامير بشير آخذ بتحريك الاهالي وإثارة الخواطر على الحاكم الذي اقرّه مولى البلاد ، وان ذاك السجين لا يتراجع امام تلك الجرأة الفظيعة ، وهو ينفث روح الثورة من عكا «ومن تحت ذقن الجزّار.» ثم اشار على الامير حسين ان ينفذ قائد عسكره فيأتي بالشيخ قعدان بو غانم مقيداً ، لأن له ضلعاً في تلك الحركة.

* * *

امّا الجزّار فلمّا وصله التحرير ، بلغ منهُ الغيظ كل مبلغ فمزّقه من شدة التأثّر ، وجعل يردّد : « يدسّ الدسائس تحت ذقني . » ثم أمر بالامير بشير ، واخيه الامير حسن ، وغانم ، فقُيّدوا وطرحوا معاً في حجرة مظلمة لا يدخل عليهم فيها احد . وامر بالشيخ بشير جنبلاط ، وفارس ناصيف ، فنُقلا الى محبس ضيّق ايضاً ولكنه في النور . ثم ارسل الى المنلا اسماعيل يأمره بالسير في جيشه عن طريق البقاع لمعاونة الامير حسين في قمع تلك الثورة.

واما الامير حسين فانفذ في الحال قائد عسكره ، حسن اغا ، الى قصر الشربين . وكان الشيخ بو غانم لا يدري ما جرى من تقلّبات الاحوال ، ولا يعلم ان الدهر يخبّئ لهُ من المصائب اضعاف ما لاقى . فقرع حسن اغا باب القصر قرعاً عنيفاً . وما هو ان فتح ، حتى كان القائد يسير في الدار على مهل وصدى وطآته الشديدة على البلاط يتردّد في زوايا الدهليز . على انه لم يبدُ امام الشيخ الوقور حتى تهيّب تلك الشيخوخة ، فوقف قليلاً لا يتكلّم . ولكن الشيخ حدجه ببصره مستغرباً دخوله ، فقال :

— يقول لك سيدنا المير انه بحاجة اليك . وقد امرني ان آخذك الى السراي.

فاختلج الشيخ بسرعة ، وتوترت اعصابه التي لم تتعود مثل هذه الجرأة في قصره . وكأن الشعور بالخطر القريب ، والأنفة من الاهانة ، وكبر النفس المتأصل في عروقه ، اعادت الى جسمه الفاني قوة الشباب فرفع رأسه ، وحدق الى عيني القائد ، وقال بصوت يتهدج غيظاً :

— ارجع وقل لسيدك اني لا افارق منزلي . واذا كان عنده ما يقوله لي فقصر الشريفين مفتوح لكل انسان . اما اذا كان قصده اخذي الى السراي ، فقصري موصد في وجهه ، لا يفتح بابه الّا مكسوراً ، ولا يدخل مقاصيره الّا مهدومة .

فصُعق حسن اغا امام هذا الردّ ، ولم يشعر الّا وقد حملته رجلاه الى الوراء . فسار يتعثّر باذيال الفشل ، ويتلمّس عن غير انتباه اطراف الدهليز ، حتى خرج وهو لا يصدّق بالنجاة .

اما الشيخ فكأنّ تلك القوّة كانت آخر ما بقي في نفسه من مظاهرها ، وقد انفق لايرازها كل ما كان في اعصابه من عنف وصلابة . فكان كقوس ضُغط طرفاها ، وشدّ وترها طويلاً ، فلم يزل عنها السهم بعيداً حتى ارتخى الوتر ، واعوجّ الطرفان . كذلك كان الشيخ ، فانه لم يكد القائد يخرج ، حتى شعر بانحطاط في جميع جسمه كان نتيجة ذاك التوتّر الشديد السريع ، وأحسّ كأن دُواراً يُلمّ برأسه ، وحتى قوية ترجف اطرافه . فاستدعى الخادم وقال :

— افرش لي ! واوصد الباب ، ولا يدخل القصر احد وانت حيّ !

ثم استلقى في بُحران وخيم العاقبة . . .

فغطاه الخادم ونادى ببوابه . ثمّ أسرع الى الدهليز فأوصد الباب ، وحمل سلاحه واقام يحرسه بقية ذاك النهار ، فلم يأتِ احد . وعند المساء رجع الخادم فسأل عن سيده فألفاه لا يزال نائماً . ثم مرّ على المطبخ فحمل عشاءه وعاد الى محرسه ، وقد تجمّعت في دماغه افكار غريبة مبهمة متناقضة كانت تجتمع تارةً حول سيّده ونومه الطويل ، وطوراً حول غانم وسجن عكا ، وحيناً حول الامير حسين وما عساه ان يصنع . وكان يجتهد في طردها فلا يقوى على ذلك . فظلّ على تلك الحال من القلق والالم الى ان كاد ينتصف الليل ، واذا

قداسة الحبر الاعظم

بيوس الحادي عشر

بعناية يوسيه الذهبي الكبوشي

المشرق - نيسان - ١٩٣٩

بوطء اقدام خفيفة تدنو من البوّابة ، فانصت . واذا بيد تنقر نقراً ضعيفاً على الخوخة . فأرهف الخادم أذنيه . وما ان عاد النقر حتى قال بصوت خافت .

— من ؟

— انا فرحات ! افتح !

فتشتت شفتا الخادم كلمات الدهشة والفرح . ولكنه تابع :

— لا يمكنني ذلك . فقد امرني سيدي الشيخ بعدم فتح الباب وانا حيّ

— افتح بلا بلادة !

— من العبث الكلام ، فلا افتح !

— مجنون والله ! وما العمل وانا اريد الدخول ؟ انّي قادمٌ من عكا فافتح !

— عليك ان تدور الدورة من تحت الشربين ، فتنزل من وراء المطبخ ؛ وانا افتح لك باب قبو الفحم ، فتدخل .

ولما لم يكن لفرحات مناص من العمل باشارة الخادم ، رجع على اعقابه ، واتجه ناحية الشربين متباعداً ما امكنه عن القصر كي يبعد عنهُ ظنون جواسيس الامير حسين الذين رآهم يرودون حوله . وما هو ان آنس غفلة من الموكل بمراقبة القصر من اعالي الشربين ، حتى انسلّ بين تلك الاشجار الكثيفة انسلال الافعى ، فكان حيناً يزحف على بطنه ، وحيناً يلتصق بالجذوع الضخمة ، وحيناً يتدلّى من غصن الى آخر ، ومن صخر الى وهدة ، الى ان وصل امام قبو الفحم فرأى الخادم بانتظاره وراء النافذة ، فدخل . وبعد ان سلّم على رفيقه ، قال هذا بصوت خافت ، ولهجة متقطّعة ، شأنَ من ينبئ بمصيبة فادحة ويتوقّع الخلاص منها بواسطة مخاطبه .

— سيدنا الشيخ انتقله مرضٌ مفاجئ ، وهو لا يزال نائماً وقد شغلت بالي حالته !

— الشيخ مريض ؟ ومن كم يوم ؟

— منذ هذا العصر . وقد ارسل الامير حسين في طلبه الى السراي . فتأثر من ذلك وانتابه دور حمى لا اعرف كيف ينتهي .

ولم يكد يتم كلامه حتى قفز فرحات فكان في غرفة الشيخ . فما راعه الّا

نور ضئيل يتأرجح مضطرباً في الخلاء. تلك الردهة الفسيحة ، حتى يصل الى وجه الشيخ فيظهر مصفرًا جامداً كأنه من الشمع ، لا عرق فيه يشوبه بالاحمرار ، ولا قسمة تدل على الحياة . والى جنبه ، جلست بربارة ، بعد ان اطفأت انوار المسرجة الا تلك الذبالة الضئيلة ، جلسة الساهرات على الموتى . وقد جحظت بعينها الى وجه سيدها ، وارهفت أذنيها الى صوت لغاته ، بينما كانت اصابعها تدحرج باضطراب حبات سبحة طويلة ، وشفتاها ترمرمان دون صوت:

« يا قديسة مريم ، يا والدة الله ، صلي لأجله ، هو الخاطي ، الآن وفي ساعة موته . آمين »

فوجئ فرحات بهذا المشهد ، فجمد هنيهة في مكانه ، شاخص العينين ، ذاهلاً . ولم يلبث ان تدفقت عبراته فجأة ، واخذ ينشج نشيج الطفل . فالتفتت اليه بربارة واشارت ان يسكت لئلا يوقظ الشيخ . فمسح دموعه ، وضبط انفاسه ، واقترب رويداً من فراش المريض مستفهماً عن حالته . فأسرت اليه انه لم يبدِ حركة منذ العصر وان العرق لا يزال يتصبب من جسمه ، وان وجهه لا يدل على شيء من الصحة والقوة .

وبينا الاثنان يتفاهمان هما ، فيهزان رأسيهما بيأس ، ويتبادلان النظرات القلقة ، اذ تحرك الشيخ ، وفتح عينيه ببطء . فأجالهما قليلاً ثم اغمضهما ، وقال لاهثاً :

— نادوا بونا توما !

فأسرع فرحات الى الباب فصده عنه الخادم قائلاً ان سيده اوصاه بأن لا يفتح لاحد . عند ذاك تذمر فرحات من تلك الطاعة العمياء ، وبعد اخذ وردّ ، انتزع المفتاح من الخادم وانحدر الى انطوش سيدة التلة فايقظ الرئيس واتى به الى الشيخ مع الزاد الاخير .

وما كاد يدخل الاب توما غرفة المائت ويصلي قليلاً ، حتى رفع الشيخ بصره فنظر نظرة العطف والطمأنينة الى القس . واشار داعياً جميع خدمه وخادماته ، فاتوا . فعدهم بنظره ، واذ رأى عددهم كاملاً ، قال :

= يا يونا توما ، مالي وصيّة سوى غانم . وهو وريثي الوحيـد ، وهؤلاء شهود ...

وبعد ان استراح قليلًا ، اردف :

— والآن اتركوني مع يونا توما !

فخرج الجميع . واذ انهى الشيخ اعترافه ، دعا القسيس الخدم فعادوا وكلٌّ يمسح دموعه . فركعوا جميعاً حول الفراش وحضروا تناول الشيخ واخذوا يردّدون على القسيس في الصلوات الاخيرة ، ويتلون معه طلبة جميع القديسين ؛ والشيخ يرافقهم باشارة رأسه ، واختلاج شفتيه حتى انتهت الصلوات كلها ، فاضطرب الشيخ قليلًا ، وخفق برأسه ، مسلماً الروح .

عند ذاك علا الصياح والعويل . واسرعت يربارة الى النافذة تفتحها وتُطلق في ذاك الجوّ الساكن صوت المصيبة الفادحة فتقلق الخواطر ، وتوجف القلوب لدى الشعور بمرور الموت ؛ فاوقفها القسيس ، واشار على الجميع بالصمت والسكون ، واحياء الليل بالصلاة وهي انجع وافيد للميت من عويل لا يجديه شيئاً ، واليق بقوم تنظر اليهم عيون الاحزاب المعاكسة ، وتحيق بهم شماتة الاعداء المنتصرين .

فسمعوا لكلامه ، وتبعوا نصيحته ، واقاموا معه حتى الصباح ، في صلاة وترحّم . وبعد القدّاس الاخير اتى جميع قُسُس الانطوش فصلّوا على جثمان الفقيد ، ودفنوه بكل اكرام واعتبار في حديقة القصر .

* * *

بعد ثلاثة ايام ، قبض رجال الجزّار في ضاحية عكا ، على رجل لبناني ، فساقوه الى مولاهم . فقلّب هذا طرفه فيه قليلًا ، وقال :

— أني اعرف هـذا الوجه ! ولا يبعد ان يكون مُن رجال الامير بشير . فزجّوه معه لعلّه يسلّيه في وحشته ....

ثم قهقه عالياً بينا كان الرجل يُساق الى سجن الامير المظلم .

ولم يصرّ القفل في باب السجن بعد خروج الحرّاس ، حتى تلمّس الرجل مقعد الامير وانطرح على رجليه يبكي ويقول :

— كيف احوال اسيادي في هذا القبر ؟ تعرَّضتُ لرجال الجزَّار لعلمي انهم يطرحونني معكم في السجن ، اذا قبضوا عليَّ . فكيف احوالكم ؟

فدهش السجناء الثلاثة لسماعهم صوت فرحات واستغربوا وصوله اليهم ، ثم اقبلوا عليه يحيّونه بالسلامة ويسألونه عن آخر الاخبار . فهزَّ رأسه بكآبة ، وقال :

— لي كلام اقوله لسيدي المير بشير . ثم اقبل يُسرُّ في اذنه مصيبة قصر الشربين . وما قاساه الشيخ ، وما يقاسيه الحزب من فظاعة الحاكم الحاضر .

وكأنَّ سلكاً خفيًّا نبَّه موطن الجزع من قلب غانم ، فتمثَّلت له المصيبة باشدّ هولها ، فصاح مضطرباً ، راجياً ، آمرًا :

— اخبرني بما حدث ! جدي ؟ ما حلَّ به ؟

ولمَّا لم يسمع جواباً عن سؤاله ، تراخت مفاصله ، وهبط بكلّه على الارض صائحاً :

— واحسرتاه عليك يا جدي ! اين غانم يغمض عينيك ! واين رجالك يسيرون في مأتمك ! .

فتقدم منهُ الامير بشير ، وبكلام يذوب لطفاً ورقّة ، أخذ يخفّف ما المَّ به مشيرًا الى ان تلك الخسارة عامّة على الحزب بكامله بل على البلاد جميعها ، راجياً من الله ان يُغدق رحمته على ذاك البطل الذي لم يعرف الّا الرحمة في حياته ، مؤملاً بانقلاب الامور فيخرجون من ذاك البرج المظلم وتنقشع تلك الغيوم الكثيفة . . .

(لها بقية)